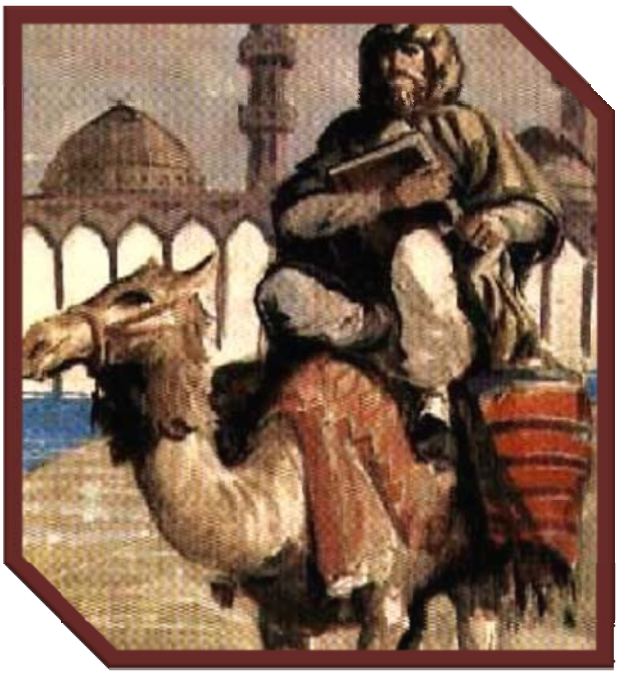

الرحلة إلى طلب العلم في تلمسان في العهد الزياني
(ق ٧ – ٩هـ/ ١٣ – ١٥م)

هادي جلول

أستاذ التاريخ الوسيط
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة سيدي بلعباس – الجمهورية الجزائرية

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

هادي جلول، الرحلة إلى طلب العلم في تلمسان في العهد الزياني: (من القرن ٧ إلى ٩هـ/ ١٣ إلى ١٥م).- دورية كان التاريخية.- العدد الخامس والعشرون؛ سبتمبر ٢٠١٤. ص ١٣٤ – ١٣٩.

www.kanhistorique.org

كان التاريخية: رقمية الموطن .. عربية الهوية .. عالمية الأداء

مُلَخّص

شهدت تلمسان في العهد الزياني، مابين القرن (٧ هـ/ ٩ هـ الموافق لـ ١٣م/ ١٥م) حركة ثقافية، وفكرية شملت جميع فنون العلم والمعرفة، جعل منها مركز إشعاع حضاري، لذا حرص سلاطينها، وفقهاءها على تمتين العلاقة مع أهل المغرب خاصة، والمشرق، والأندلس على وجه العموم، وذلك عن طريق الرحلة العلمية، والحج إلى البقاع المقدسة في الحجاز، وبيت المقدس، فكانت فرصة ثمينة أن يحدث التلاحم، والتلاقح الفكري، ودعم الروابط الثقافية، والفكرية بين علماء تلمسان، ونضرائهم من حواضر المشرق، والمغرب، والأندلس وغيرها من البلاد العربية التي كان يشد علماء العاصمة الزيانية الرحال إليها ليس إلا لطلب العلم والاستزادة من المعرفة في مختلف المجالات، ورغم الحروب، والانقسامات السياسية التي عرفتها أغلب الأقطار الإسلامية في تلك الحقبة الزمنية، فلم يمنع ذلك من أن ينتقل طلاب العلم للقاء الشيوخ أينما وُجدوا، وأن الرحلة لطلب العلم كانت من الأمور المحمودة، وسبيلهم في دلك التحصيل العلمي وتبادل الآراء، والمعارف في شتى أنواع العلوم، والمعرف، ومد جسور التواصل الفكري والثقافي عبر الأجيال ويتمثل هذا الاتصال في تداول المعارف والكتب، وتبادل الإجازات اعترافاً متبادلاً فيما بن الشيوخ أنفسهم.

مُقَدِّمَة

لم يدع الإسلام وسيلة من الوسائل التي تفيد الإنسان إلا وحثه على فعلها، ومنها الرحلة، سواء أكانت للعلم أو الهجرة بالدين من أرض الشرك إلى أرض الإسلام أو الحج أو التجارة،[١] وفي بداية الحديث عن الرحلة لا بد من التطرق إلى أولى الرحلات الثابتة لدينا والمستقاة من أوثق وأصدق مصادرنا الإسلامية وهو القرآن الكريم، فقد حفل القرآن الكريم بالأمثلة العديدة لكل نوع منها على الرغم من عدم ورود لفظ رحلة فيه إلا مرة واحدة في سورة قريش، قال تعالى: "لإِيلَافِ قُرَيْش إِيلَافهِمْ رِحْلَة الشِّتَاء وَالصَّيْف فَلْيَعْبُدُوا رَبّ هَذَا الْبَيْت الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوع وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْف"،[٢] وقد أفردت هذه السورة بكاملها للحديث عن الرحلة، وهي رحلة قريش التجارية، فكما هو معلوم أن أهل مكة المكرمة اتجهت أنظارهم إلى التجارة بحكم موقع مكة "بواد ذي زرع"، كما قال تعالى على لسان خليله إبراهيم "عليه السلام": "رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ"،[٣] فهذا الموقع جعلها منطلق التجارة، وأظهرت سورة قريش بوضوح رحلتها إلى الشام واليمن، والتي جنت منهما أرباحًا طائلة انعكست أثارها على أوضاعها الاقتصادية، وغدت ذات مركز مالي خطير في الحجاز، وسوقًا لتبادل السلع، ولم يكن هدفها من الاستيراد الاكتفاء الذاتي فقط، بل قامت بتصدير الفائض عن حاجتها إلى أطراف السواحل الجنوبية لشبه الجزيرة العربية والشام واليمن والسواحل الإفريقية

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

المقابلة، حيث بلغت أحمال كل قافلة لتلك الجهات أكثر من ألف بعير.[٤]

وردت في القرآن الكريم آيات كثيرة، تبين هذا النوع من الرحلة، وأشهر رحلة علم وردت فيه، هي رحلة سيدنا موسى "عليه السلام" مع سيدنا الخضر عليه السلام ليتعلم منه، قال تعالى: "وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا* فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا* فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا* قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا* قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا* فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا* قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا* قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا* وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا* قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا* قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا* فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا* قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا* قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا* فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا* قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا* قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا* فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا* قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا* أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا* وَأَمَّا الْغُلامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا* فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا* وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا"،[٥] فهذه الآيات مثال واضح ضربه الله تعالى لطلب العلم وبيان وجوبه، فقد فهم المسلمون معنى ذلك مبكرًا، فسعوا لطلبه من مكان إلى آخر، مع الحرص على لقاء العلماء والأخذ عنهم، فموسى "عليه السلام" على الرغم من بلوغه تلك المرتبة العالية عند الله تعالى واختصاصه بكلامه يرحل إصرارًا على لقاء العبد الصالح بغض النظر عن المسافة والمشقة،[٦] وطالبًا بأدب،[٧] ضرب لنا عزّ وجل آية في الكون كله حتى يتسنى التفكير في الرحلة من أجل طلب أي نوع أو فن من فنون المعرفة، وبأي أرض تكون فيها المعرفة المرّاد البحث عنها، سواء في مشارق الأرض أو مغاربها، ودليلنا هذه الآيات الكريمة التي ذُكرت في سورة الكهف، لا دليل قاطع أن طلب العلم ليس من الشيء الهيّن، ولكن طريقه صعب وطويل، على صاحبه تحمل المشّاق، حتى ينال مرّاده من العلم والمعرفة أينما كانت، وكيفما كانت.

الرحلة إلى طلب العلم

كان التجوال في سبيل الدراسة والعلم أمرًا شائعًا بين طلاب العلم في المغرب الأوسط مثلما كان شائعًا في الشرق والغرب في العصور الوسطى، فقد كان الحرص على لقاء الشيوخ والأساتذة المشهورين هو الغرض الأول من الرحلة في طلب العلم، وتحتل فكرة ضرورة الأخذ عن الشيخ مباشرة والجلوس إليه أهمية كبرى في التعليم في تلك الفترة، فلم يكن يكتفي الطالب بقراءة مصنفات الأستاذ وحده، وإنما كان لابد أن يقرأها أو يسمعها منه حتى يعتبر ثقة في مادته، وحجة في عمله، وبدون ذلك لا تصح روايته ولا يوثق بقوله.[٨]

لم يكن المغرب الأوسط يعيش بمنء عن التطورات السياسية، ولا علماءه بمعزل عن التحولات الثقافية والفكرية التي يعيشها العالم الإسلامي بشقيه الشرقي والغربي. ولم ينقّكوا البتة بربطهم اتصالات متعددة الأوجه بنظرائهم من عواصم الأندلس والمغرب والمشرق على وجه العموم، فتضاعفت وتيرة اتصالهم بشكل ملحوظ خلال القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر ميلادي عن طريق النشاط الدبلوماسي،[٩] فقد انتقل الدارسون التلمسانيون لطلب العلم والاستزادة منه، ولقاء كبار الشيوخ المشهورين، لأن الرحلة في طلب العلم كانت من المسائل المحمودة، فكانوا لا يكلون عن السعي في سبيل الدرس ولتحصيل وتبادل الآراء في مختلف العلوم العقلية والنقلية، ومد جسور العلم والثقافة عبر الأجيال،[١٠] بفضل اهتمام أمراء وسلاطين المملكة الزيانية، ودور العلماء والفقهاء غير المنقطع، اكسب المجتمع التلمساني، ثقافة واسعة، ورقيًا حضاريًا أخرجته من طور البداوة إلى طور الحضارة، فأعطى بمختلف عناصره أهمية كبيرة للحياة الاجتماعية ومظاهرها، وللحركة الفكرية والثقافية، ونشر المعرفة وتعميقها بواسطة التعليم، وبفضل الرحلة والاحتكاك بالعلماء الوافدين،[١١] كما كان الاهتمام بالرحلة في طلب العلم ضربًا من ضروب التحقيق العلمي، فلم يظهر كتاب لإمام في فئة، إلا وسارع إليه طلاب العلم ليقرأه عليه بغية الانتماء وتحقيق إسناده إليه ونسبته إليه، وليتمكن طالب العلم من الاستفادة بتميز الاصطلاحات بعد لقاء العديد من شيوخ العلم لما يراه من اختلاف طرقهم في البلاد المختلفة التي يرحل إليها.[١٢]

إن طلبة العلم لا يكتفون بما يتلقونه من العلوم في مدينتهم، بل يطفون البلاد، ويجوبون الأقطار للقاء العلماء المشهورين، وكان الكثير منهم يرتحل إلى أقطار المغرب الأخرى والأندلس والشرق، فتأثرت الحياة الفكرية، إلى مدى بعيد بهذا الاحتكاك مع علماء الأقطار الإسلامية،[١٣] لذا يمكن القول أن الحركة الفكرية لدولة بني عبد الواد أنها تغذت برافدين هامين، رافد الأندلس ورافد الشرق،[١٤] ظلت تلمسان مربعًا لعلماء وأدباء طالما افتخر بهم

علمية. عالمية. مُحكمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

البلاط الزياني قصدها مدارسها الطلاب من كل فج وصوب، واستوطنها أولياء قد أعجبهم الموقع وراقهم المجتمع.[١٥]

حرص سلاطين بني زيان وفقهاء مدينة تلمسان على تمتين العلاقة مع أهل المغرب خاصة، والمشرق والأندلس على وجه العموم، حيث تضاعف الاتصال عن طريق النشاط الدبلوماسي،[١٦] وتبادل الرسائل الديوانية والإخوانية،[١٧] وعن طريق الرحلة العلمية والحج إلى البقاع المقدسة بالحجاز وبيت المقدس، فأتيحت الفرصة للتلاقح الفكري ودعم الروابط الثقافية بين علماء تلمسان ونظرائهم من حواضر المشرق والمغرب والأندلس،[١٨] وتمثل هذا الاتصال في تداول المعارف والكتب وتبادل الإجازات اعترافًا متبادلاً فيما بين الشيوخ أنفسهم، لما يجدونه من معارف ولما يحصلونه من علوم بعضها كان باللقاء المباشر والبعض الآخر بالمكاتبة،[١٩] قد استفاد أهل تلمسان مما كانوا يحملونه من علم وفكر وحضارة، فكانت لهم مشاركة جادة في تطور الحياة الثقافية والاجتماعية والاقتصادية وترقيتها في المدينة.[٢٠]

وكانت ثقافة أهل بلاد المغرب الأوسط في هذه الفترة كانت تجعل من الرحلة أساسًا من أسس العلم وطلبه وبالتالي تطورت العلوم الشرعية وآداب لغة القرآن الكريم، وانتشار التعليم وتكاثر طلاب العلم وتواجد العلماء، وبزوغ أولى أشعة النهضة الثقافية والعلمية التي عرفها عاصمة الزيانيين، مع بداية القرن التاسع الهجري، الموافق للقرن الخامس عشر ميلادي، فما من عالم يومئذ إلا وأعمل الرحلة في طلب العلم سواء كانت داخلية، وهي أقل قيمة لانعدام، المراكز العلمية ذات العيار الثقيل، أو الرحلة الخارجية وهي التاج الذي يحلّى به العالم، وبها يعرّف ليكون بعد عودته هو بدوره مقصد الطلبة وتشد إليه الرحال كما وقع مع جل العلماء الذين رحلوا إلى مختلف المراكز العلمية المنتشرة في العالمين العربي والإسلامي،[٢١] وتمثل الاتصال في تداول المعارف والكتب، وتبادل الإجازات اعترافًا متبادلاً فيما بين الشيوخ أنفسهم، لما يجدونه من معارف ولما يحصلونه، من علوم بعضها كان باللقاء المباشر والبعض الآخر كان بالمباشرة.[٢٢]

قال ابن خلدون عاكسًا هذه الثقافة وهو يتحدث عن ضرورة الرحلة لطلب العلم: "إن الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعليم والسبب في ذلك أن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما يتجلون له من المذاهب والفضائل تارة علمًا وتعليمًا وإلقاءً، وتارة محاكاة وتلقينًا بالمباشرة، إلا أن حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشد استحكامًا وأقوى رسوخًا، فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها والاصطلاحات أيضًا في تعليم العلوم مخلطة على المتعلم حتى لا يظن كثير منهم أنّها جزء من العلم ولا يدفع عنه ذلك إلا مباشرته لاختلاف الطرق فيها من المعلمين، فلقاء أهل العلوم وتعدد المشايخ يفيد تميز الاصطلاحات بما يراه من اختلاف طرقهم فيها، فيجرّد العلم عنها ويعلم أنّها أنحاء تعليم وطرق توصل وتنهض قواه إلى الرسوخ والاستحكام في المكان وتصحيح معارفه، وتميزها عن سواها مع تقوية ملكته بالمباشرة والتلقين وكثرتهما من المشيخة عند تعددهم وتنوعهم، وهذا لمَنْ يسر الله عليه طرق العلم والهداية، فالرحلة في طلب العلم لابد منها لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء الشيوخ ومباشرة الرجال والله يهدي مَنْ يشاء إلى صراط مستقيم".[٢٣]

إن ضم أطراف المغرب بعضها مع البعض، وضم الأندلس إليه، وذلك على أيدي المرابطين أولاً، ثم على أيدي الخليفة عبد المؤمن الذي أنجبته أرض المغرب الأوسط وأبنائه من بعده، أخيرًا على أيدي ملوك فاس من بني مرين، جعل من هذا الجزء من العالم الإسلامي الواقع غربي طرابلس، إقليمًا يمتاز عن العالم الإسلامي ببعض الخاصيات، نذكر منها اعتناقه لمذهب عقائدي واحد، ولمذهب فقهي غالبو كذلك امتيازه ببعض أساليب التعليم، وبعض الخاصيات العلمية والأدبية كازدهار بعض العلوم أكثر من غيرها، نذكر منها على سبيل المثال شدة اعتناء أهل المغرب والأندلس بقراءات القرآن.[٢٤]

كانت الرحلة في طلب العلم من المسائل المحمودة في المغرب الإسلامي عمومًا باعتبارها عاملاً هامًا في تمتين العلاقات والروابط مع أهل المغرب خاصة والمشرق والأندلس على وجه العموم، إذ تضاعف الاتصال عن طريق النشاط الدبلوماسي،[٢٥] ولا ريب أن مما أعان على كثرة الرحلات، ما كان يلقاه طلاب العلم من رعاية أثناء رحلتهم نتيجة لما أوصى به الإسلام من اليسر بأبناء السبيل، ورعاية المسافر والعطف إليه، فأينما ذهب الغريب في أنحاء العالم الإسلامي، في العصور الوسطى، وجد المكان الذي يبيت فيه والموضع الذي يؤويه، وكانت المساجد والمدارس حيث الأماكن معدة لإيواء الطلاب بالمجان والنفقة عليهم،[٢٦] وخير مكان يقصده الغريب، كذلك كانت الزوايا مفتوحة للمسافرين والقادمين.[٢٧]

وتجدر هنا الملاحظة؛ بأن حكام المغرب الأوسط لم يضعوا أمام العلماء في دولتهم أية عوائق، كما سمحوا للوافدين من الفقهاء والعلماء الإقامة في ربوع دولتهم والتمتع بكل المميزات التي يتمتع بها أقرانهم من أهل العلم في المغرب، ومن بركة العلم والحرص في طلبه لقوله (ﷺ) "تكفل الله برزق طالب العلم، يأتيه من غير تعب ولا مشقة، وغيره لا يناله إلا بالتعب والعناء والمشقة" وهذا كله من دعاء الشيوخ له ورضاهم عن خدمته.[٢٨]

شد طلاب العلم من أهل تلمسان رحالهم إلى مختلف الحواضر المغربية والأندلسية والمشرقية، تدفعهم الرغبة في الاستزادة من العلم على كبار شيوخ هذه الحواضر،[٢٩] سنحاول ذكر بعض العلماء الذين تحملوا مشقة السفر في سبيل الدرس والتحصيل والتعمق في العلم والمعرفة حتى صاروا فيما بعد شيوخًا وعلماء، حيث ساهموا في إثراء النهضة الفقهية في العديد من الأقطار التي حلوا بها في العهد الزياني، منهم:

محمد بن مرزوق الحفيد (٨٤٢هـ /١٤٣٨):[٣٠] غرب وشرق مثل والده وأجداده، وأختار طريق العلم والرحلة في سبيله، فكان له

علمية. عالمية. مُحكمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

فضل الإقراء من المغرب إلى الديار المصرية، أخذ العلم عند شيوخ تلمسان، ثم انتقل إلى عاصمة بني حفص، حيث التقى بمجالس شيوخها وارتحل إلى فاس ودرس على علماءها، ثم اجتاز الأندلس وعكف على الدراسة بها، شد رحاله إلى المشرق للتزود بمعارفه.[٣١]

أبو عبد الله محمد النجار (٧٥٠هـ /١٣٤٩م):[٣٢] من أهل تلمسان، أخذ العلم ببلده عن مشيختها، وعن شيخنا لأبلي، وبرز عليه. ثم ارتحل إلى المغرب، أخذ بمراكش عن الإمام أبي العباس بن البناء،[٣٣] وكان إمامًا في علوم النجامة وأحكامها، وما يتعلق بها، ورجع إلى تلمسان بعلم كثير.[٣٤]

أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن احمد العبدرّي الآبلي التلمساني، أخذ عن فقها تلمسان أبي الحسن التنسي، وابني الإمام، ورحل في آخر المائة السابعة، فدخل مصر والشام والحجاز والعراق، ثم قفل إلى المغرب، فأقام في تلمسان مدة.[٣٥]

أبو علي بن علي بن عبد الله الزوّاوي (٧٧٠هـ /١٣٦٨م) نزيل تلمسان، ولد في بجاية سنة ٧١٠هـ، ونشأ بها، فأخذ عن والده وشيوخ مدينته، منهم منصور المشدّالي وأبي العباس أحمد بن عمران ويوسف الزواوي وقاضي الجماعة ببجاية أبي عبد الله محمد بن يوسف،[٣٦] في تلمسان درس على أبي محمد عبد المهيمن الحضرمي، وأبي إسحاق بن أبي يحيى، وعلى العباس بن يربوع ووغيرهم. ارتحل إلى الأندلس فأقرأ بها، وأخذ عن ابن الفخار البيري الذي أجازه، ثم انتقل إلى المغرب الأقصى، فأخذ عن القاضي الشريف الحسني السبي الذي قرأ "تسهيل الفوائد لابن مالك"،[٣٧] وبعدما استفتي في مسألة شرعية، خالف فيها فقهاء الفروع في زمانه في الأندلس، فاشتد هؤلاء، في معارضة واذايته فاضطر إلى الارتحال إلى تلمسان سنة (٧٦٥ هـ)، حيث أستقر بها يقرئ ويدرس.[٣٨]

أبا عبد الله محمد الحسيني، الشهير بالشريف التلمساني: (٧١٠ هـ/٧٧١هـ - ١٣١٠م/١٣٧٠) اشتهر بالفقيه والمنطق، انتقل إلى تونس سنة (٧١٠هـ/١٣٣٩م)، وحضر مجالسها العلمية وأخذ عن مشايخها[٣٩] ومحمد بن إبراهيم العبدري الابلي، وكان من الشيوخ الذي اصطفاهم أبو الحسن المريني لاصطحابه إلى افريقية حتى استولى عليها،[٤٠] وكذا المقري محمد بن أحمد بن أحمد التلمساني الذي كانت له رحلة هو لآخر إلى تونس.[٤١]

كان كذلك من جملة الفقهاء الذين تشرفوا باستدعاء السلطان المريني أبو عنان سنة (٧٥٢هـ/١٣٥٢)، وولاه قضاء فاس.[٤٢] علي بن محمد بن أحمد بن موسى بن مسعود الخزاعي أبو الحسن التلمساني: من أسرة أندلسية، ولد في تلمسان سنة (٧١٠ هـ)، وبها نشأ وتعلم، وقد برز في التاريخ والفقه والحساب فتنافس عليه ملوك المغربين الأوسط والأقصى، ثم أنتقل إلى بلاط بني مرين كاتبًا للأشغال قريبًا لقلم الدولة، ونال خطوة ما وصل إليها غيره من العلماء لدى الملوك، توفي في فاس سنة ٧٨٩هـ،[٤٣] كان قد ألف كتاب "تخريج الثلالات السمعية على ما كان في عهد رسول الله من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية"، ألفه للسلطان المتوكل على الله أبي فارس المديني، وانتهى منه سنة (٧٨٦ هـ).

تميز هذا الاتصال بتداول الكتب والمعارف والتنافس على المجالس، والحلقات العلمية مع المساهمة فيما عندهم من علم ومعارف لطلاب هذه البلدان ومشايخها، فكان لهم باع طويل في هذا المجال، تركوا آثارا علمية وبصمات فكرية وسمعة طيبة عند أهل المغرب والأندلس، فكان أعلام تلمسان قد بلغوا من النضج والاستواء درجة كبيرة جعلها تفرض نفسها عن جدارة في الأوساط العلمية شرقًا وغربًا. ومن بين المؤلفات المشرقية والأندلسية التي كانت ترد إلى حواضر المغرب وعواصمه، وكانت تدرس لطلبة المدارس المغربية نجد "مختصر ابن الحاجب في الأصول والفروع"،[٤٤] كما ورد على لسان عبد الرحمن ابن خلدون أنه حفظ قصيدتي الشاطبي الكبرى والصغرى في القراءات في الرسم وتدارس كتابي ابن الحاجب في الفقه والأصول و"جمل الخونجي" في المنطق وبعض من "كتاب التسهيل" وكثيرًا من قوانين التعاليم.[٤٥]

خاتمة

لقد أدت الرحلة إلى تكوين كوكبة من الأساتذة والعلماء تميزوا بغزارة التحصيل حتى أصبحوا حُجة في العلوم النقلية والعقلية. كما ساهمت هذه الرحلات في التأسيس لمرحلة جديدة في المغرب الأوسط، كما ساعدت بشكل كبير على اكتمال شخصيته الفقهية، ومهّد أصحابها بمعية تلامذتهم لعهد جديد عرفت البلاد خلاله نهضة علمية وفقهية لم تشرق بشمسها على هذا الجناح فحسب، وإنّما على كافة أرجاء المغرب الإسلامي وحتى ربوع العالم الإسلامي.

علمية. عالمية. مُحكمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

الهوامش:

(١) عواطف محمد يوسف نواب، **الرحلات المغربية والأندلسية (مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين٧ و٨هـ)**: دراسة تحليلية وقارنة، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية ١٤١٧هـ، الرياض، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م، ص٢٩.

(٢) **سورة قريش**، الآية [١-٤].

(٣) **سورة إبراهيم**، الآية [٣٦].

(٤) جواد علي، **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، الجزء الثاني، الطبعة الثانية، دار العلم للملايين، بغداد، مكتبة النهضة ١٩٧٨م، ص٢٩٠.

(٥) **سورة الكهف**، الآية [٦٠-٨٢].

(٦) سيد قطب، **في ظلال القرآن**، ج٢، ط٩، دار الشروق.١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، ج٤، ص٢٢٧٨.

(٧) نفسه، ص٢٢٨٩.

(٨) محمد عادل عبد العزيز، **التربية الإسلامية: أصولها وتأثيراتها الأندلسية**، الهيئة المصرية العامة للكتاب١٩٨٧، ص٣٠

(9) Dhima (A): Royoume Abdelouadide à l'époque d'Abou Homou- Moussa 1er et d'abou- Tochfin 1er O.P.U/E.N.A.L .Alger .pp220

وأحمد بن محمد المقري التلمساني، **"نفخ الطيب من غصن الأندلس الرطيب نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب"**، ج٦، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٨٨م، ص٣٨٨.

(١٠) حسن الوراكلي، المشيخة العلمية في المغرب والأندلس خلال القرن الثامن الهجري، طنجة، ١٩٩٠، ص٧٨

(١١) عبد العزيز فيلالي، **تلمسان في العهد الزياني**، ج١، ص٥ موفم للنشر، الجزائر، ٢٠٠٢.

(١٢) محمد عادل عبد العزيز، المرجع السابق، ص٣٠.

(١٣) عبد الحميد حاجيات، **أبو حمو موسى الزياني حياته وأثاره**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط١، ١٩٨٢، ص٣٥.

(14) marcais(G)la berberie musulmane et l'orient au moyen age-p. 297.

(١٥) محمد بن عمرو الطمار، **تلمسان عبر العصور**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ٢٠٠٧، ص٢٦٨.

(16) Atallah Dhina, le royaume abde oudide a l'époque d'abou hammou moussa1er et d'abou tachfin1er,pp220-237.

(١٧) وله مقال: **مساعدة الزيانيين لمسلمي الأندلس**، في مجلة تاريخ وحضارة المغرب، ع١٣، الجزائر١٩٧٦، ص٧-١٧.

(١٨) أحمد بن محمد المقري التلمساني، المصدر السابق، ج٦، ص ٢٠٤-٣٧٥-٣٧٧.

(١٩) محمد الهادي أبو الأجفان، **الإمام أبو عبد الله محمد المقري التلمساني**، الدار العربية للكتاب، ليبيا - تونس ١٩٨٨ ص٦٢.

(٢٠) حسن الوراكلي، المرجع السابق، ص٧٨.

(٢١) عبد الرحمن بن خلدون، **المقدمة**، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ناشرون، بيروت، لبنان ١٩٩٦، ص٦٦٨.

(٢٢) بن عيسى بويوزان، فضل الحج على العلم في الغرب الإسلامي من خلال رحلات الحج من القرن الخامس إلى القرن التاسع الهجريين، بحث مقدم إلى ندوة مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية ١٤٢٦هـ ، ص٢٠.

(٢٣) حسن الوراكلي، المرجع السابق، ص٧٨.

(٢٤) عبد الرحمن ابن خلدون، المصدر السابق، ص ٦٣٤.

(٢٥) محمود بوعياد، **جوانب من الحياة في المغرب الأوسط في القرن التاسع الهجري (١٥م)**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ١٩٨٢، ص٥٣.

(٢٦) عطاء الله دهينة، **مساعدة الزيانيين لمسلمي الأندلس**، مجلة تاريخ وحضارة المغرب، العدد ١٣ جانفي ١٩٧٦، ص ٧.

(٢٧) محمد عادل عبد العزيز، المرجع السابق، ص٣١.

(٢٨) نفسه، ص٣١.

(٢٩) ابن مريم الشريف المديوني، المصدر السابق، ص٤٠.

(٣٠) عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ص٣٢٩.

(٣١) محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق الحفيد العجيسي التلمساني الإمام المشهور العلامة الحجة الحافظ المحقق الكبير الثقة الثبت النظار المنصف التقي الصالح الزاهد الورع البركة. ينظر: محمد المختار اسكندر، **المفسرون الجزائريون عبر القرون**، (بحث تاريخي يعرف بالعلماء الجزائريين لدى تفسيرهم للقران الكريم) رواية ودراية منذ القرن الثاني الهجري إلى القرن الرابع الهجري، ج١ مطبعة حلب من السلسلة الذهبية لإحياء التراث الإسلامي، ص١٦٩، ١٧٨، ومحمد بن محمد مخلوق في **شجرة النور الزكية في طبقات المالكية**، المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة١٣٤٩ هـ، ص٢٥٢، وأحمد بابا التنبكتي، **نيل الابتهاج بتطريز الديباج**، تحقيق الدكتور علي عمر، (المجلد الثاني)، مكتبة الثقافة الدينية، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ /٢٠٠٤م- القاهرة. ص١٧١، ١٨٤.

(٣٢) عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ص١٣٥ ، أحمد بابا التنبكتي،نفسه،ص١٨٠، عبد الحميد حاجيات، **الحياة الفكرية بتلمسان في العهد الزياني**، مجلة الأصالة، السنة الرابعة، العدد ٢٦، ١٩٧٥ ، ص١٤٦.

(٣٣) محمد بن يحي ابن النجار التلمساني، ينظر: أحمد ابن القاضي المكناسي، **جذوة الاقتباس وذكر مَنْ حل من الأعلام مدينة فاس**،ج١، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ص ٣٠٢. أحمد بن محمد المقري التلمساني، المصدر السابق، ج٥، ص٢٣٦، ابن مريم، المصدر السابق، ص١٥٤-١٥٣، أحمد بابا التنبكتي، المصدر السابق،ج٢، ص٥٨-٥٧.

(٣٤) **الإمام أبي العباس بن البناء**: أحمد بن محمد بن عثمان الأزدي الشهير بابن البناء المراكشي، كان أبوه محترفًا بالبناء وطلب هو العلم، فوصل فيه الغاية القصوى، وأخذ بطرفي الدين والدنيا، كان إمام الحضرة المراكشية، ولد في مراكش في التاسع من ذي الحجة سنة أربعة وخمسين وستمائة، توفي يوم السادس من رجب سنة أحدا وعشرين وسبعمائة. ينظر: أحمد بابا التنبكتي، المصدر السابق، ج٢، ص٧٩، أحمد ابن القاضي المكناسي، المصدر السابق، ج١، ص١٤٨، **شجرة النور الزكية**، ص٢١٦.

(٣٥) عبد الرحمن بن خلدون، (٧٣٢هـ-٨٠٨هـ) التعريف بابن خلدون، رحلته.....، ص ٤٧.

(٣٦) أبو عبدالله محمد بن إبراهيم العبدري الابلي: يحي بوعزيز، **مدينة تلمسان عاصمة المغرب الأوسط**، دار الغرب، وهران، ط٢، ٢٠٠٣، ص٩٣، شهاب الدين أحمد بن محمد المقري، المصدر السابق، ج٥، ص٢٤٤، وابن مخلوف، المصدر السابق، ص٢٢١. وأحمد بابا التنبكتي، المصدر السابق، ج٢، ص ٦٦، وللمؤلف نفسه، **كفاية المحتاج لمعرفة مَنْ ليس في الديباج**، تحقيق الدكتور علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية - الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ/٢٠٠٤،ج٢، ص٥٣، وأحمد ابن القاضي المكناسي، المصدر السابق، ج١، ص٣٠٤، و يحي بن خلدون، المصدر السابق، ج١، ص١٧، وأحمد بن محمد المقري، **أزهار الرياض في أخبار عياض**، تحقيق مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر١٣٥٨هـ/١٩٣٩م، القاهرة، ج٥، ص٦.

(٣٧) علي علواش: **معجم مشاهير المغاربة**، تنسيق أبو عمران الشيخ، تقرير ناصر الدين لعبدوني، إعداد فرقة البحث العلمي، جامعة الجزائر ١٩٩٥، ص ٢٦٧.

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

(٣٨)أحمد بابا التنبكتي، المصدر السابق،ج١، ص٣١، يحي بن خلدون، المصدر السابق، ج١، ص٣٣، ابن مريم، المصدر السابق، ص٢٩٢، ابن الخطيب لسان الدين، **الإحاطة في أخبار غرناطة**، حقق نصه ووضع مقدمته وحواشيه: محمد عبد الله عنان، الطبعة الأولى، مكتبة الخانجي، القاهرة (١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م)، ج٣، ص٣٢٣.

(٣٩)لسان الدين ابن الخطيب، المصدر السابق،ج٣، ص٣٢٥.

(٤٠)ابن مخلوف، المصدر السابق، ج١، ص٢٣٢، ابن مريم ، المصدر السابق، ص١٥٤.

(٤١)نفسه، ص٢٢١.

(٤٢)ابن مريم، المصدر السابق، ص٦٦.

(٤٣)عمار علال، المرجع السابق، ص١.

(٤٤)عبد الرحمن الجيلالي، **تاريخ الجزائر العام**، ج٢، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٩٨، ص ١١٣- ١١٥.

(٤٥)انتقل مختصر ابن الحاجب من تونس إلى تلمسان على يد ابن الإمام الذي قرأ مع ابن عبد السلام على نفس المشيّخة، ثمّ انتقل إلى بجاية في آخر المائة السابعة عن طريق أبو علي ناصر الدين المشدّالي، ثم أخذه تلميذه أبو موسى عمران ابن موسى المشدّالي إلى تلمسان، عبد الرحمن ابن خلدون، **المقدمة**، المصدر السابق، ص ٤٨٣-٤٨٤.

(٤٦)عبد الرحمن ابن خلدون، المصدر السابق، ص ٦٧٦.

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449